الشعر الغنائي في العصر الأموي

إعـــــداد

الباحث/ عبد العزيز غنام المطيري

معد برامج في وزارة الإعلام الكويتية

تاريخ الاستلام : ١٣/ ٤/ ٢٠٢١م

تاريخ القبول : ١٠/ ٥ /٢٠٢١م

ملخص:

تناول البحث الحالي موضوع الشعر الغنائي في العصر الأموي منذ خلافة معاوية رضي الله عنه سنة ٤١هـ، حيث ازدهر الأدب في عصر بني أميّة وتعدّدت فنونه، كان منها الغناء الذي لم يعرفه إلا العرب في الجاهليّة كما هو معروف في العصر الأموي، فقد امتازت حياة الجاهلية بالخشونة. ثم تم التطرق إلى أغراض الشعر الأموي، حيث ظهرت أغراض شعريّة جديدة وتطوّرت أغراض أخرى قديمة، أما بيئات الشعر في العصر الأموي فاختلف فيها الشعر بحسب طبيعة ما يدور من أحداث وتطورات على أهل سكان المنطقة. أما مجالس الغناء والشعر في العصر الأموي اختلف فيها الغناء عما هو سائد في العصر الجاهلي، حيث تم استخدام ألوان وآلات موسيقيّة مختلفة عما استخدم من قبل، وقد اتسم الشعر الغنائي بالعديد من السمات كان أبرزها الحداثة في أسلوب الشعراء، وظهور ألوان جديدة. كما تناول البحث الخلفاء وظاهرة الغناء حيث طلب بعضهم إرسال المغنين والمغنيات من الحجاز، واشترى البعض الآخر المغنيات، وقد احترف المغنيين الغناء في مكة والحجاز حيث أحيوا تراث العصر الجاهلي.

Abstract:

The current research has dealt with the topic of lyric poetry in the Umayyad era since the Caliphate of Muawiya in the year 41 AH, where literature flourished in the era of the Umayyads and its art varied, including singing that the Arabs did not know in the Jahiliyyah, as it is known in the Umayyad era. Then, the objectives of Umayyad poetry were addressed, where new poetic purposes appeared and other old ones developed. As for the poetry environments in the Umayyad era, poetry differed according to the nature of the events and developments taking place on the people of the region's inhabitants. As for the singing and poetry councils in the Umayyad era, in which singing differed from what was prevalent in the pre-Islamic era, where different colors and musical instruments were used from what was used before, and lyric poetry was characterized by many features, the most prominent of which was modernity in the style of poets, and the emergence of new colors, as the research dealt with The caliphs and the phenomenon of singing, where some of them asked to send singers and singers from the Hijaz, and some of them bought the singers. The singers became professionally sung in Mecca and the Hijaz, where they revived the heritage of the pre-Islamic era.

مقدمة:

يمتد العصر الأموي مند خلافة معاوية رضي الله عنه سنة ٤١هـ إلى غاية انتزاع العباسيّين الخلافة من بني أمية سنة ١٣٢هـ. وقد ظهر في هذه العصر الشعر السياسي؛ نتيجة الصراع السياسي الذي نشب بين مختلف الأحزاب السياسّة حول الخلافة ؛ فكان لكل حزب شعراءه الذين يدافعون عنه، كما برز نوعين من الغزل؛ أحدهما يتمثل في الغزل العذري، أما الآخر فهو الغزل الصريح أو ما يسمى الحضري الإباحي(١).انظر

ازدهر الأدب في عصر بني أميّة، شعره ونثره على السواء، وتعدّدت فنونه، وشمله التجديد في كل مظهر من مظاهره، واسترعت النهضة التي بلغها آنذاك أنظار النقاد والدارسين، وكانت الأسباب التي أدت إلى هذا الازدهار، وإلى تلك النهضة كثيرة ومتظافرة. فالعصر الأموي يعد عصر حركة الفن للحياة، وحركة الحياة للحياة، حركة النقائض بثالوثها (جرير والأخطل والفرزدق)، وهو عصر الأحزاب السياسيّة (كالشيعة، والأموية، والخوارج والزبيرية)، وعصر الأحزاب الدينية (المرجئة، والجبرية، والقدرية)(٢).انظر

لم يعرف العرب في الجاهليّة الغناء بشكله المعروف في العصر الأموي، فقد كان الغناء عندهم في الغالب الحُداء، والحداء: ضرب من الغناء، عدّه أغلب الكتاب أصل الغناء، فقد غنّى به العربي لناقته وهو يضرب في أسفاره يحثّها به على المسير لكي تبلغ به الغاية، قال الجوهري: " الحدو: سوق الإبل والغناء لها"(٣). وهذا لا ينفي أن يكون العرب قد عرفوا الغناء، ولكنه لم يكن بالصورة التي صارت عليه في العصر الأموي كما أسلفنا.

فقد كانت حياة العرب في العصر الجاهلي حياة جافّة خشنة، ولم تتوافر لهم الوسائل التي تهيء لهم الحياة المترفة والمنعمة، التي عرفوها في

العصر الأموي، العصر الذي سادت به الإمبراطوريّة الأمويّة، وما نشأ في ظل هذه الإمبراطوريّة من وفرة في سبل الرخاء والرغد، وانتشار اللهو والترف في قصور الأمراء، وتأثيره على خلق هذه الثقافة في العامّة والخاصّة. وكما قيل الناس على دين ملوكهم، فقد كانت همّة الوليد بن عبد الملك في البناء، وكان الناس كذلك، يلقى الرجل الرجل فيقول: ماذا بنيت؟ ماذا عمّرت؟ وكانت همّة أخيه سليمان في النساء، وكان الناس كذلك، يلقى الرجل الرجل فيقول: كم تزوجت؟ ماذا عندك من السراري؟ وكانت همّة عمر بن عبدالعزيز في قراءة القرآن، وفي الصلاة والعبادة، وكان الناس كذلك، يلقى الرجل الرجل فيقول: كم وردك؟ كم تقرأ كل يوم؟ ماذا صليت البارحة؟[٤].

"تكونت، في الحجاز تحت تأثير الترف وفراغ كثير من الشباب للهو نظريّة غناء شارك فيها العرب والموالي، ولم تلبث هذه النظريّة أن انتقلت إلى الشام، إذ كان هناك اتصال دائم بين مغنّيِ الحجاز ومغنياته وبلاط الخلفاء. ويخيّل لمن يتصفّح كتاب الأغاني أنه لم يعد للناس في مكة والمدينة في أثناء هذا العصر من عمل سوى السماع للغناء حتى العباد والفقهاء كانوا يطلبونه. ويروى أن مالكاً صاحب مذهب معروف حاول في أول أمره أن يكون مغنياً. واشتهر عطاء وابن جريج من فقهاء مكة بإقبالهما على سماع المغنين."[٥]

أغراض الشعر الأموي

وقد ظهرت أغراض شعريّة جديدة وتطوّرت أغراض أخرى قديمة. ومن الأغراض الشعريّة الجديدة التي ظهرت في العصر الأموي الشعر السياسي بسبب كثرة الأحزاب السياسيّة والشواهد الشعريّة أكثر من أن تُعد أو تُحصى حيث ظهر في عالمه أسماء كثيرة للشعراء من بينهم: جرير الفرزدق، والكميت وغيرهم، ومن الأغراض الشعريّة القديمة التي تطورت في العصر الأموي الغزل. فنشأت مدارس

الغزل في مكة والمدينة والبادية، غزل حضري مادي صارخ اللون، جريء القول، وغزل بدوي عف نقي المعدن عذب الروح. فالغزل في عهد دولة بني أميّة يتمثل في تيارين، عذري غلب عليه الاهتمام بالجانب المعنوي في الحب، وكان من شعرائه جميل بن معمر، والتيار الثاني إباحي فكان محققاً اهتم بالجانب الحسّي في المرأة، وكان حامل هذا التيار عمر بن أبي ربيعة. فالغزل بقسميه عربي خالص نشأ في جزيرة العرب خاصّة (٦).

بيئات الشعر في العصر الأموي

بيئة الحجاز: إن أكثر أهلها بدو حيث نشأوا على الاستقلال فأورثهم ذلك أنفة وعزة واعتداد بالنفس وجرأة لا تحد، ومنهم من استوطنوا المدن والقرى، وهؤلاء قلّة بالنسبة إلى بقيّة السكان، ومن أشهر مدنه: مكة والمدينة، والطائف. فقد اهتم أهلها بالشّعر وعنوا به وبنقده عناية شديدة، فشاع التغنّي به وظهرت فنون جديدة منه: كالغزل القصصي، والغزل العذري، وقد أغدق الخلفاء على شباب الحجاز المال والعطاء ليصرفوهم عن المطالبة بالخلافة، فذاع الترف وانتشر النعيم وكثر اللهو(٧).

بيئة نجد: كان سكان هذه الصحراء بدو رحل كانوا يؤثرون الرحلة داخل صحرائهم متنقلين من مكان إلى آخر ومن ذلك نرى أن الحياة في نجد كانت بعيدة عن الاستقرار وقائمة على الحروب التي لا تكاد تنقطع بين قبائلها، هذا بالإضافة إلى قبوعهم داخل صحرائهم وعدم اتصالهم بالأمم المتحضّرة خارج حدودهم، إلا ما كان من اتصال ببعضهم ممن يعيشون على أطراف الشام والعراق (٨).

بيئة العراق: كانت مركز للمعارضة السياسيّة في الشام، ومنا كانت تنطلق الثورات واحدة تلوى الأخرى ضدهم بسبب العداوة التي كانوا يضمرونها للأمويين

وأنصارهم من أهل الشام، فكانت صبغة بيئة العراق ثوريّة، وانطبع شعرها بالطابع الثوري، فظهر فيه تبعاً لذلك لون جديد هو الشعر السياسي، حيث حول الخصومات السياسيّة بين الخليفة ومعارضيه من الأحزاب، وقد اهتم ولاة العراق بالشعر وأغدقوا على الشعراء المال ومن أشهرهم زياد الحجاج(٩).

بيئة الشام: حيث عاصمة الخلافة ومستقر بني أمية (حيث المال والترف)، فقد تساقط عليها الشعراء طلباً للرفد، والتماساً للعطاء، وطمعاً في المال، وكانت قصائد التهنئة والمدح والفخر تلقى بين الخلفاء والأمراء والولاة في دمشق وفي غيرها من الشام العامرة الحافلة بأسباب النشاط، فقد كانت دمشق في عهد الأمويين حاضرة للخلافة، وقاعدة للملك، ومقر الجند، ومعقل الإسلام ومناط الأمل، فشغلها أدب السيف عن أدب القلم وألهاها عن حمل الكتاب وحمل القلم، وخلجتها خوالج السياسة عن رواية الأدب وفرض الشعر، فتخلّت عنها للعراق والحجاز ، فزخرت مدنها بالشعراء (١٠).

مجالس الغناء والشعر في العصر الأموي

عرف العرب الغناء منذ عصر ما قبل الإسلام ومارسوه، حتى نكاد لا نجد مكاناً في شبه جزيرة العرب إلا وفيه غناء، مستخدمين آنذاك أنواع وألوان مختلفة من آلات الطبل والعزف ونحوهما. ولما جاء الإسلام وفُتحت الشام وبلاد فارس انفتح العرب على أهالي تلك البلدان فوجدوا فيها نظماً ورسوماً ومفردات ثقافيّة في غاية التطوّر على الأخص بلاد فارس، ومنها الغناء فقد عُرفت بلاد فارس آنذاك برقيّ وتطور تلك الصناعة لدى الطبقة الحاكمة من ملوك آل ساسان إذ كانوا يتخّذون لأنفسهم المغنيين ويولعون بالغناء، ويروى مثلاً أن كسرى ابرويز كان في قصره آلاف الجواري للخدمة والغناء، وكذلك الحال في بلاد الشام التي كانت مقراً للروم، ومن تينيك الحضارتين دخل غناء جديد إلى حضارة العرب عن طريق الرقيق

وسبايا الحروب، وعن طريق بعض كبار المغنيين الذين أخذوا عن الغناء الفارسي وغناء الروم، فمثلاً يقال إن المغني طويس – أحد كبار المغنيين في المدينة وقيل أنه أول من غنى في عصر الإسلام في المدينة – أخذ طرائق الغناء عن سبي فارس، كما يروى أن المغنّي سعيد بن مسجع نقل غناء الفرس إلى غناء العرب، ثم سافر إلى بلاد الروم وأخذ عن ألحانهم وتعلم منهم اللحن وأدخله في غناء أهل الحجاز، وقد اشتهرت المدينة بالدرجة الأولى بالغناء ثم مكة بالدرجة الثانية، بل إن غالبيّة كبار المغنيين كانوا من المدينة (١١).

ولم يجد الولاة والعمال العرب خلال العصر الأمويّ حرجاً من سماع الغناء من هذا وذاك طالما أن غالبيّتهم قد أباح الغناء وحبب سماعه وشجّع عليه كمعاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه وولده يزيد، والوليد بن عبد الملك، ويزيد بن عبد الملك، والوليد بن يزيد هذا أولاً، وثانياً إن هناك من الفقهاء من أجاز الغناء وجعله مباحاً في أوساط المجتمع الإسلامي آنذاك، وثالثاً كانت أخلاق وصفات وأفعال غالبيّة ولاة وعمّال بني أمية متدنّية، وغالبيتهم كانوا منهمكين باللّهو والشراب والمجون، أو بمعنى آخر كانوا لا يعيرون أهميّة لمسألة تحريم الغناء أو إكراهه، لذلك أباح الولاة والعمّال الغناء وشجعوا عليه وفتحوا أبوابهم على مصراعيها لاستقبال المغنيين من مختلف المدن والبلدان أو من المغنين المحليين كما فعل خلفاؤهم(١٢).

أبرز سمات الشعر الغنائي

لم يعد الشعر في الحجاز والشام يُؤلّف في هذا العصر بالصورة القديمة، إنما أصبح يؤلّف بصورة جديدة، فهو من حيث أسلوبه يميل الشعراء به إلى سهولة مفرطة، ومن حيث موضوعه أصبح يختص بالحب وأحداثه ووقائعه المعاصرة،

ومن حيث كميّته أصبح مقطوعات لا تزيد عن عشرة أبيات إلا في القليل النادر. وليس هذا كل ما يميّزه، فقد كان هؤلاء المغنّون والمغنّيات يتناولون بعض أبياته بالإصلاح والتهذيب فيضعون كلمة مكان أخرى، أو شطراً مكان آخر، وقد يزيدون بعض الأبيات، ويتّضح هذا من المقابلة بين ديوان ابن أبي ربيعة وكتاب الأغاني في المقطوعات التي غُنّيت من شعره، إذ نجد اختلافاً كثيراً.(١٣) ومن ذلك ما قاله المغني مالك بن أبي السرح حينما سأله الوليد بن يزيد: هل تصنع الغناء؟ قال: لا، ولكنّي أزيد فيه وأنقص منه، فقال له: فأنت المُحلِّي إذاً.(١٤)

" فهذا اللون الجديد من الشعر لم يكن فنّاً مستقلاً بنفسه، بل كان فنّاً معتمداً على فن آخر هو الغناء، وقد أخذ الغناء يؤثّر فيه بصور مختلفة، تارة عن طريق تهذيب المغنيين فيه، وتارة عن طريق فَرضِهِم ألحانَهم على الشعراء، وكانوا يُدخلون ألحاناً أجنبيّة كثيرة، وكانوا يطلبون من الشعراء من حين لآخر قطعاً من أوزان خاصّة، حتى يغنوا فيها.

فشاعر المدينة ومكة ودمشق في هذا العصر لم يكن حراً، بل كان مقيّداً بنظريّة الغناء الجديدة التي وُضعت حينئذٍ، ورغبة أصحابها في بعض الألحان والأنغام التي قد تحتاج في الشعر إلى جهر ومدٍّ في بعض الحروف وهمس وتقصير في الحروف الأخرى، وهو ما تعوّد العروضيون أن يسمّوه بالزحافات. ولا نشك في أن كثيراً من زحافات الشعر في هذا العصر أريد بها تلبية لحاجة مغنّ من المغنيين أو مغنية من المغنيات.

وكذلك الشأن في الأوزان نفسها فقد مال شعراء الحجاز والشام في هذا العصر إلى الأوزان الخفيفة من مثل الوافر والهزَج والمتقارب والرمل والسريع والخفيف. وقد ينظمون في الأوزان الطويلة ولكنهم يعمدون إلى تجزئتها. وشيء من ذلك كان موجوداً في العصر الجاهلي، ولكن نلاحظ في هذا العصر الكثرة، وأن

الشعراء كما هجروا الأساليب الجزلة حاولوا أن يهجروا الأوزان المعقّدة. كل ذلك ليصيبوا هوى المغنين والمغنيات، حتى يتيحوا لهم الفرصة كي يصبوا في الشعر كل ما يريدون من ألحان وأنغام."[١٥]

الخلفاء وظاهرة الغناء

" لم يلبث خلفاء بني أمية – إذا استثنينا معاوية رضي الله عنه – أن طلبوا المغنين، وبالغ في ذلك يزيد بن عبدالملك، فكان يُرسل في طلب المغنيين والمغنيات من الحجاز، واشترى مغنيتين مشهورتين: إحداهما بأربعة آلاف دينار وهي حبابة، والثانية بعشرين ألفاً وهي سلامة القس. ونشأ ابنه الوليد على مثاله فكان بلاطه يكتظ بالمغنيين من مثل معبد، ويحيى، والهذلي، والأبجر، وأبي كامل."[١٦] ورُوي أنه حينما ولي الخلافة أشخص إلى المغنين، فحضروه وفيهم معبد وابن عائشة، فقال لابن عائشة: إن غنيتني صوتين في نفسي فلك عندي مائة ألف درهم؛ فغناه قوله:

إنّني أبصرتُ شيخاً ... حسَنَ الوجه مليحْ

ولباسي ثوب شيخٍ ... من عباءٍ ومُسوحْ

وأبيعُ الزيتَ بيعاً ... خاسراً غيرَ ربيحْ

وغناه أيضاً:

فما مسكٌ يعلُّ بزنجبيلٍ ... ولا عسلٌ بألبانِ اللِّقاحِ

بأشهى من مُجاجةِ ريقِ سلمى ... ولا ما في الزّقاق من القَراحِ

ولا والله لا أنسى حياتي ... وثاقَ الباب دوني واطّراحي

فقال الوليد: ما عدوتَ ما في نفسي؛ وأمر له بمائة ألف درهم وخُلع، وأمر لسائر المغنين بدون ذلك.(١٧)

ومن أشعار الوليد بن يزيد بن عبدالملك التي قالها في محبوبته سلمى وغنّاها المغنّون؛ قوله:

عرفتُ المنزلَ الخالي ... عفا من بعدِ أحوالِ

عفاه كلُّ حنّانٍ ... عسوفِ الوبل هطّالِ

لسلمى قُرّةُ العينِ ... وبنتُ العمّ والخالِ

بذلتُ اليومَ في سلمى ... خِطاراً أتلفتْ مالي

كأنّ الريق من فيها ... سَحيقٌ بين جِرْيالِ(١٨)

وذكر ابن خُرْداذَبّهْ أنّ هذا اللحن للوليد بن يزيد.(١٩)

الذين احترفوا الغناء

- في مكة:

من المغنين:

الهذلي النقاش، ومالك بن سريج، وابن مشجع، والغريض، وابن محرز، وابن مشعب، وخليل بن عمرو.

ومن المغنيات:

خليدة المكية، وربيحة، وسلامة القس.

- وفي الحجاز:

من المغنين:

معبد بن وهب، وسائب، وطويس، وابن عائشة، ومالك بن أبي السمح، وبرد الفؤاد، وبديح المليح، وابن صاحب الوضوء، والدّلّال، والأبحر، والبردان.

ومن المغنيات:

عزة الميلاء، وبصبص، وجميلة، وفرعة، وحبابة، وبلبلة.

- وفي العراق: حنين.

- وفي الشام: أبو كامل الغزيل الدمشقي.

ومن أبرز المغنين في العصر الأموي معبد، ولهُ سبع أغاني سميت بالمدن السبع أو الحصون السبع، وترجع تسميتها بهذا الاسم، أنه قد سمع رجلاً يقول: إن قتيبة بن مسلم فتح سبعة حصون أو سبع مدن بخراسان فيها سبعة حصون صعبة المرتقى والمسالك لم يوصل إليها قطّ. فقال: والله لقد صنعت سبعة ألحان كلّ لحن منها أشدّ من فتح تلك الحصون. فسئل عنها فقال:

لعَمرِي لئن شطَّتْ بعَثمةَ دارُها

و: هُريرةَ ودِّعها وإن لام لائمُ

و: رأيتُ عَرابةَ الأوسيَّ يسمو

و: كم بذاك الحَجونِ من حيٍّ صدِقٍ

و: لو تعلمينَ الغيبَ أيقنتِ أنّني

و: يا دار عَبلةَ بالجِواءِ تكلَّمي

و: ودِّع هريرةَ إن الركبَ مُرتحِلُ).[٢٠]

الشعراء الذين تغنوا بأشعارهم:

لقد قام المغنون في العصر الأموي بإحياء تراث العصر الجاهلي، من خلال التغني بنصوص شعرائه، ومثال ذلك؛ قصيدة عنترة(هل غادر الشعراء من متردم)، وقصيدة زهير بن أبي سلمي (بانت سعاد فقلبي اليوم مبتولُ)، والأعشى (ودع هريرة إن الركب مرتحلُ)، وغير هذه القصائد الكثير التي قد تغنى بها مغنوا العصر الأموي وأعادوا إحيائها من خلال الغناء في مجالس الطرب واللهو. أما ما يخص الشعراء المعاصرين في ذلك العصر الذين رققوا الألفاظ وجعلوا قصائدهم في الغالب مقطوعات صغيرة، ووضعوها في قوالب الأوزان الخفيفة، وقد كان هذا كله من أجل أن تتناسب أشعارهم مع الغناء، ويسهل على المغنين غناءها. ومن أشهر هؤلاء الشعراء: عمر ابن أبي ربيعة، وعبيدالله بن قيس الرقيات، والعَرْجي في مكة، والأحوص في المدينة، والوليد بن يزيد في دمشق.

"ونستطيع أن نجمل خصائصه في أنه شعر شباب مُدن يسوقونه للمرأة، وعلى الأخص المرأة التي يجدونها في دور الغناء. وكان كل منهم يحاول أن يسبق صاحبه في تصوير شعوره ودقة التعبير عنه. وفُتِنَت المغنيات بهذا الشعر الذي يُشيد بهن ويحكي حسنهن ومفاتنهن. والأحوص خير مثال يصور لنا ذلك، فقد كان يعشق أكثر المغنيات في دار جميلة، وهي أكبر دار للغناء في المدينة، بل في الحجاز كله في أثناء هذا العصر. وقلّما تظهر مغنية في هذه الدار لا يكون له معها شعر، وعشق، وهو القائل:

إذا أنت لم تَعشقْ ولم تدرِ ما الهوى فكن حجراً من يابس الصَّخرِ جَلْمَدا"[٢١]

فالأحوص كما ذكرنا كان أكثر الشعراء ولعاً بالمغنيات؛ فقد كان عاشقا لحبابة، وسلامة القس، وعقيلة، والذلفاء، حيث قال فيهن أشعاراً تحكي هيامه وولعه بهن؛ ومن هذه الأشعار قوله في المغنية سلامة القس التي قامت بغنائه:

أسَلام هــل لمتيّمٍ تنــويـــلُ أم هل صرمتِ وغالَ وُدَّكِ غولُ

لا تَصرفـــي عنّي دلالَكِ إنّه حَسَنٌ لــديّ وإن بَخِلْتِ جميــلُ

أزَعمتِ أن صبــابتي أُكذوبَةٌ يومـــاً وأن زيارتـــي تعليلُ[٢٢]

ومن الشعراء الذين اشتهروا بهذا الشعر المغنى؛ كما أسلفنا الشاعر العرجي؛ ومن أجمل أشعاره التي غناها المغني ابن جريج؛ قوله:

عوجـــي عليَّ فسلمي جَبْرُ فيــم الصدودُ وأنتمُ سَفْـــرُ

فكفى بهِ هَجـــراً لنا ولكم أنَّى وذلك فاعلَمـــي الهجْرُ

لا نلتقي إلا ثلاثَ منِـــــى حتـــى يُشتِّتَ بيننا النَّفْـــرُ

بالشهرِ بعد الحولِ نُتْبِعُـــهُ ما الدهرُ إلا الحولُ والشَّهْرُ[٢٣]

ولم يكن الغناء محصوراً على شعر الغزل فقط، ومن الأبيات التي سرت بين الناس وتغنى بها الفقير والأمير، قول العرجي مفتخراً بنفسه ومعاتباً لقومه؛ إذ يقول:

أضاعوني وأيَّ فتًى أَضاعوا ليـــومِ كريهــةٍ وسدادِ ثَغْرٍ

وخلــوني لمُعْتَرَكِ المنايــا وقــد شُرِعَتْ أَسنَّتُها بنحري

كأني لم أكن فيهم وسيطـــاً ولم تَكُ نِسْبَتي في آلِ عَمْرِو

أُجَرَّرُ في الجوامعِ كلَّ يوم فيـــا للهِ مَظْلمتي وصبري(٢٤)

ونجد عمر بن أبي ربيعة وهو علم من أعلام الشعر في العصر الأموي؛ ينسج من أبياته شعراً أراد له أن يغنى؛ ومنه ما تغنت به مغنية العراق: حنين؛ إذ يقول:

ألا يا بكْـرُ قد طرقـــــا خيـــالٌ هيَّـــجَ الرُّفقـا

أجـــارَ البيدَ معْترضـاً فعَرْضَ الـــــوادِ فالشَّفقا

لهنـــــدٍ إنَّ ذِكْرَتَهـــا تُرى مـــــن شيمتي خُلُقا(٢٥)

ففي العصر الأموي لم يتغير الشعر عـن حالـه، بـل أصـبح شـعراؤهم يهيمون في البلاد الغربية بعد أن هُدِرت دمـاؤهم مـن قِبـل قبـائلهم وملـوكهم؛ لأن الشاعر عندما كان يقع في الحب يتغزل في مـدح حبيبتـه، وهـذا مـا جعـل منهم متشردين هاربين من القتل، وهذا ما حجّـم الشـعر الغنـائي ووضـعه فـي مساحة ضيّقة لا تليق بهذا الشـعر، ومـن أشـهر شـعراء هـذا العصـر جميـل بثينة، وهو جميل بن عبد الله بـن معمـر، وكـان مـن قبيلـة تشـتهر بالجمـال والعشق، أحب قريبته "بُثينة" فنسب إليها وهُدر دمـه بعـد هـذا الحـب؛ ليهـرب إلى مصر. ومن شعراء هـذا العصـر أيضـاً قـيس بـن الملـوح بـن مـزاحم العامري "مجنون ليلى"، كان يعشق ليلى حتى جـن مـن العشـق، وبعـدما تقـدم لها رفض أهلها الزواج به؛ لأنه كـان يـذكرها فـي أشـعاره، فتزوجـت برجـل آخرَ، وأصبح يتردد عليها وهي متزوجة، حتى علـم أهلهـا، فـأخبروا السـلطان فهدر دمـه، وهـرب إلـى الحجـاز، وهنالـك مـات وحـدَه علـى جبـل مـن الصخور(٢٦).

أما الغناء في العصر الأموي وضع (يونس الكاتب) أول المؤلفات التي تناولت النظريّات الموسيقيّة وسيرة أهل الفن وقد ألف كتب مهمة مثل كتابي (النغم) و(القيان) وكانت مؤلفاته نواة لما صنعت بعد ذلك في هذا الميدان في العصور اللاحقة ومصدراً هاماً يرجع إليه مؤرخوا الغناء من بعده، عاش يونس الكاتب في المدينة وأخذ الغناء عن (ابن سريح ومعبد) (٢٧). والمغنية (جميلة) أخذت الغناء عن سائب خاثر وكان جاراً لأهلها يضرب بالعود ويغني، فبرعت في ميدان الغناء والتلحين، وكان مجلسها بمثابة مدرسة التعليم الموالي والقيان أصول صنعة الغناء، ولها فضل الريادة في تشكيل فرقة العزف والغناء الجماعيّة، وأسست أيضاً أسلوب الغناء الجماعي والثنائي وتدريب مجموعة من المغنيين والمغنيات، ويعتبر (سعيد بن مسجح) أول من وضع دستور اقتباس الألحان الأجنبيّة ووضعها على أشعار عربيّة، فهو مؤسّس مدرسة موسيقيّة خاصّة توطدت أركانها على مر السنين والأجيال (٢٨).

ويعد (حنين الحيري) أول مغن عراقي في العصر الأموي، عمل بائع للزهور، وقاده ذلك إلى منازل الأشراف والأثرياء إذ شغف بحفلات الغناء وأوصله شغفه على الاشتغال بالموسيقى، فدرس العود على أيدي أساتذة نابغين وأصبح أحد العوادين والمغنيين البارعين بحسن الأداء وقوّة الخيال التي تبرز اقتداره في التلحين، ويعد أول مغن يدخل الأغنية الفنيّة من نوع (السناد) ويطوّرها في العراق بعد الإسلام لما فيها من ترجيع وتحلية، وابتدع أسلوب الغناء الخاص بالترددي والتجاوبي وقبله كان الغناء العراقي يقنع بالهزج الذي لايختلف إلا قليلاً عن النصب، أما المغني العراقي الثاني هو (أحمد النصيبي) من الكوفة من المغنيين البارزين الذين لاينطقون بكلمات، بل يفصحون عن طربهم بالصوت المنغم، وبرع في غناء النصب، وأدخله في الموسيقى العراقيّة، والنصب يتميز بالطرافة والشجن، والنصيبي اشتهر بالعزف على آلة الطنبور إلى جانب امتلاكه لحدّة الخيال في تصوير الألحان ورصفها ومدها وتحليتها (٢٩).

ومن الشعراء الذين أجازوا الغناء في أشعارهم الأقيشر الأسدي الذي تجسّد حنينه إلى الغناء لحنينه إلى اللّذة الحسيّة يقول(٣٠):

جربت مع الصبا طلق العتيق وهان علي مأثور الفسوق

ومسمعة إذا ما شيءت غنت متى نزل الأحبة بالعقيق

لحن الاقيشر يميل إلى الفاعليّة وإلى الحركة التي تحدّثها الشهوة ويزيد الغناء منها، الأمر الذي دعا يزيد بن الوليد إلى تحريم الغناء بقوله:

"يا بني أمية، إيّاكم والغناء فإنه ينقص الحياء، ويزيد في الشهوة، ويهدم المروءة، وإنه لينوب عن الخمر، ويفعل ما يفعل المسكر، فإن كنتم لا بد فاعلين فجنبوه النساء(٣١).

خاتمة

الحمد لله كما ينبغي لجلال وجهه وعظيم سلطانه، والحمد لله على نعمة العلم، ففي نهاية هذا البحث أتمنى أن اكون سلطت الضوء على الشعر الغنائي في العصر الأموي بطريقة يسيرة وبسيطة بمقدور الباحثين الاطلاع عليها بيسر، دون ملل، وباسلوب سهل بسيط، حيث وصلت للعديد من النتائج التي ساختصرها في سطور قليلة.

بعد أن كانت حياة العرب في العصر الجاهلي حياة جافّة خشنة، ولم تتوافر لهم الوسائل التي تهيء لهم الحياة المترفة والمنعمة، ظهرت أغراض شعريّة جديدة وتطوّرت أغراض أخرى قديمة في العصر الأموي، فاختلف فيها الشعر بحسب طبيعة ما يدور من أحداث وتطورات على أهل سكان المنطقة، وأصبح الشعر يؤلّف بصورة جديدة، فهو من حيث أسلوبه يميل الشعراء به إلى سهولة مفرطة، ومن حيث موضوعه أصبح يختص بالحب وأحداثه ووقائعه المعاصرة، ومن حيث كميّته أصبح مقطوعات لا تزيد عن عشرة أبيات إلا في القليل النادر، ولقد قام المغنون في العصر الأموي بإحياء تراث العصر الجاهلي، من خلال التغني بنصوص شعرائه.

الهوامش

(١) عتيق، عبد العزيز (٢٠٠١). الأدب الإسلامي والأموي. دار النهضة ط١: لبنان.

(٢) خفاجي، محمد عبد المنعم. (١٩٨٠). الحياة الأدبيّة عصر بني أميّة . دار الكتاب اللبناني ط٢: لبنان.

(٣) ابن منظور، جمال الدين، لسان العرب، بيروت، دار صادر، ٢٠١١م، حدا.

(٤) أنظر ابن كثير، أبي الفداء اسماعيل، البداية والنهاية، تحقيق محمد حسان عبيد، دار ابن كثير، دمشق- بيروت،٣٥٤/٩.

(٥) ضيف، شوقي (ب.ت) .التطور والتجديد. ط٨. دار المعارف: مصر.

(٦) الشيخ، زين الدين زكريا (٢٠٠٦). الأدب القديم نص ودرس. مجلة كلية الآداب جامعة الإسكندرية. (١١)١. ١١٢-١٢٧.

(٧) انظر مرجع سابق، خفاجي.

(٨) انظر مرجع سابق، عتيق.

(٩) انظر مرجع سابق، خفاجي.

(١٠) انظر الزيات، أحمد حسن (٢٠٠٤). تاريخ الأدب العربي. دار المصرفة : لبنان.

(١١) انظر محمد، عبد الرحيم حلو (٢٠٠٩). مجالس الشعر والغناء عند الولاة والعمال العرب خلال العصر الأموي. مجلة ميسان للدراسات الأكاديمية. (١٥)٨. ١٠٣-١٤٧.

(١٢) انظر مجالس الشعر والغناء عند الولاة والعمال العرب خلال العصر الأموي، ٧٣.

(١٣) انظر مرجع سابق. التطور والتجديد، ١٠٤.

(١٤) قبايلي، حميد (٢٠٢٠). ديوان أشعار المغازي جمع وشرح وتعليق. مركز الكتاب الاكاديمي: الجزائر .

(١٥) مرجع سابق. التطور والتجديد، ١٠٤-١٠٥.

(١٦) مرجع سابق، التطور والتجديد،١٠٢.

(١٧) انظر الأغاني،٧/٢٤-٢٥.

(١٨) الجريال والجريالة: الخمر الشديدة الحمرة. لسان العرب، جرل.

(١٩) انظر مرجع سابق. الأغاني، ٧/٢٧.

(٢٠) انظر مرجع سابق. الأغاني، ٩/١٠٢.

(٢١) مرجع سابق. التطور والتجديد، ١٠٣.

(٢٢) مرجع سابق.الأغاني، ٨/٢٤٢.

(٢٣) ديوان العرجي، ٢٣٢.

(٢٤) ديوان العرجي، ٢٤٦- ٢٤٧.

(٢٥) ديوان عمر بن أبي ربيعة، ١٤٠- ١٤١.

(٢٦) انظر قناوي، عبد العظيم علي (١٩٤٩). الوصف في الشعر العربي. مطبعة مصطفى الحلبي: مصر.

(٢٧) الشوان، عزيز (١٩٧٩). الموسيقى للجميع. الهيئة المصرية العامة للكتاب: القاهرة.

(٢٨) انظر البيطار، خليل (٢٠٠٤). جميلة سيدة مغنيات المدينة. مجلة الحياة الموسيقية. (٣٣)٧. ٩٥- ١٠٣.

(٢٩) انظر الهاشمي، عادل (١٩٨٥). موسوعة حضارة العراق. دار الشؤون الثقافية العامة: بغداد.

(٣٠) ابن الأسدي. (١٩٩١). ديوان الأقيشر الأسدي: دارر الكتاب العربي: بيروت.

(٣١) السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (٩١١) تاريخ الخلفاء، تحقيق أحمد محيي الدين عبد الحميد. مطبعة المدني: القاهرة.

المصادر

- ابن الأسدي. (١٩٩١). ديوان الأقيشر الأسدي: دار الكتاب العربي: بيروت.
- ابن كثير، أبي الفداء اسماعيل، البداية والنهاية، تحقيق محمد حسان عبيد، دار ابن كثير، دمشق- بيروت،٩/٣٥٤.
- ابن منظور، جمال الدين، لسان العرب، بيروت، دار صادر، ٢٠١١م، حدا.
- السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن ابي بكر (٩١١) تاريخ الخلفاء، تحقيق حمد محيي الدين عبد الحميد. مطبعة المدني: القاهرة.
- الشوان، عزيز (١٩٧٩). الموسيقى للجميع. الهيئة المصرية العامة للكتاب: القاهرة.
- قناوي، عبد العظيم علي (١٩٤٩). الوصف في الشعر العربي. مطبعة مصطفى الحلبي: مصر.
- لسان العرب، عجف.
- الهاشمي، عادل (١٩٨٥). موسوعة حضارة العراق. دار الشؤون الثقافية العامة: بغداد.

المراجـــع

- البيطار، خليل (٢٠٠٤). جميلة سيدة مغنيات المدينة. مجلة الحياة الموسيقية. (٣٣)٧. ٩٥-١٠٣.
- خفاجي، محمد عبد المنعم (٢٠٠٤). الحياة الأدبية في العصر العباسي، دار الوفاء للطباعة والنشر. : بيروت.
- الزيات، أحمد حسن (٢٠٠٤). تاريخ الأدب العربي. دار المصرفة : لبنان.
- الشيخ، زين الدين زكريا (٢٠٠٦). الأدب القديم نص ودرس. مجلة كلية الاداب جامعة الاسكندرية. (١١)١. ١١٢-١٢٧.
- عتيق، عبد العزيز (٢٠٠١). في الأدب الإسلامي والأموي. دار الكتاب : لبنان.
- محمد، عبد الرحيم حلو (٢٠٠٩). مجالس الشعر والغناء عند الولاة والعمال العرب خلال العصر الأموي. مجلة ميسان للدراسات الأكاديمية. (١٥) ٨. ١٠٣-١٤٧.